

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا...

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ...

الأسرة

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَقْضِلُ!

إِنَّ الْأُسْرَةَ هِيَ أَوَّلُ مَكَانٍ يُبْصَرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ نُورَ الْحَيَاةِ، وَتَتَشَكَّلُ فِيهِ شَخْصِيَّتُهُ وَفِيَمُهُ. حَيْثُ يَتَعَلَّمُ الْإِنْسَانُ فِي كَنَفِ أُسْرَتِهِ أَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تَجْبِرُ الْخَوَاطِرَ، وَأَنَّ الرَّحْمَةَ تُضَمِّدُ الْجَرَاحَ. وَفِيهَا يَعْرِفُ أَنَّ الصِّدْقَ يَتَجَلَّى فِي أَقْوَالِ الْكِبَارِ، وَأَنَّ الرَّحْمَةَ تَكْمُنُ فِي الْحَنَانِ الَّذِي يَحْطِي بِهِ، وَأَنَّ الْعَدْلَ يَتَحَقَّقُ فِي الْإِنْصَافِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ. وَعِنْدَمَا يُنْهَكُ صَحْبُ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، يَجِدُ فِي أُسْرَتِهِ الرَّاحَةَ وَالسَّكِينَةَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا..."¹

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَعْرَاءُ!

لَيْسَتْ الْأُسْرَةُ مُجَرَّدَ رَابِطَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَلَا شَرَاكَةً فِي الْحَيَاةِ تُبْنَى عَلَى أَهْوَاءٍ عَابِرَةٍ. بَلِ الْأُسْرَةُ هِيَ الْمَرْفَأُ الْأَكْثَرُ أَمَانًا الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْمَرْءُ طَوَالَ حَيَاتِهِ. الْأُسْرَةُ تُعْنِي أَنْ تَتَوَلَّى رِعَايَةَ وَالِدَيْكَ عِنْدَ مَرَضِهِمَا، وَأَنْ تَسْهَرَ بِجَانِبِ وَلَدِكَ إِذَا ارْتَفَعَتْ حَرَارَتُهُ، وَأَنْ تَتَعَاقَقَ مَعَ أَحِبَّتِكَ صَبَاحَ الْعِيدِ. فَيَجِبُ أَلَّا تَنْسَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ بِنَاءَ دُورِ رِعَايَةِ الْمُسْتَنِينَ وَدُورِ رِعَايَةِ الْأَطْفَالِ، وَلَكِنَّ مَكَانَةَ الْأُمِّ الَّتِي تُصْمُ طِفْلَهَا بِحَنَانٍ، وَالْأَبِ الَّذِي يَكُونُ لَهُ قُدْوَةٌ حَسَنَةً، وَالْجَدَّ وَالْجَدَّةَ اللَّذَيْنِ يَحْكِيَانِ الْقِصَصَ لِحَفِيدِهِمَا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْرِضَهَا شَيْءٌ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْكَرَامُ!

إِنَّ الْأَطْفَالَ يَتَعَلَّمُونَ الْأَدْعِيَةَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حُجُورِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيَتَعَلَّمُونَ الصَّلَاةَ بِجَوَارِ آبَائِهِمْ. وَيَرَوْنَ فِي كَنَفِ الْأُسْرَةِ احْتِرَامَ الْكَبِيرِ، وَالرَّأْفَةَ بِالصَّغِيرِ، وَالرَّحْمَةَ وَالتَّقَاسُمَ. وَيُذَرِّكُونَ فِيهَا أَنَّ الْكَذِبَ حَرَامٌ، وَأَنَّ التَّعَدَّى عَلَى حُقُوقِ الْعِبَادِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ. وَقَدْ قَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا تَحَلَّ وَلَدٌ وَلَدًا مِنْ تَحَلٍّ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ".² فَلَا بُدَّ وَالْأُمُّ اللَّذَانِ يَتَرَكَاَنِ أَطْفَالَهُمَا أَسْرَى لِلشَّاتَاتِ وَلَا يَهْتَمَّانِ بِهِمْ، إِنَّمَا يَحْرِمَانِهِمْ مِنْ هَذَا الْمِيرَاثِ.

إِنَّ الشُّعُورَ بِالمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي يُكْتَسِبُهَا الْمَرْءُ فِي الْأُسْرَةِ يَنْعَكِسُ عَلَى حَيَاتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَيْضًا. فَالْأَطْفَالُ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ فِي أُسْرِهِمُ الْحُبَّ وَالْاحْتِرَامَ وَالْمُودَةَ وَالصَّدَاقَةَ وَالتَّقَاسُمَ، يُصْبِحُونَ أَشْخَاصًا يُحْتَدَى بِهِمْ فِي مَرَاحِلِ دِرَاسَتِهِمْ وَالْعَمَلِ وَفِي جَمِيعِ مَجَالَاتِ حَيَاتِهِمْ. وَفِي الْمُقَابِلِ، فَإِنَّ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الشَّجَارَ وَالْعُنْفَ فِي أُسْرِهِمْ، وَيُحْرَمُونَ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالْحُبِّ، يَحْمِلُونَ آثَارَ هَذِهِ الْجِرَاحِ طَوَالَ حَيَاتِهِمْ.

أَيُّهَا الْأَبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ الْكَرَامُ!

لَقَدْ بَيَّنَّ لَنَا نَبِيُّنَا الْحَبِيبُ ﷺ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا مَسْئُولٌ عَنْ أُسْرَتِهِ.³ وَمِنْ مُقْتَضَيَاتِ هَذَا التَّوَجِيهِ النَّبَوِيِّ أَنْ نَعْرِفَ مِنَ الَّذِينَ يُصَاحِبُهُمْ أَبْنَاؤُنَا، وَفِي أَيِّ التَّطْيِيقَاتِ يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي الْعَالَمِ الْإِفْتِرَاضِيِّ، وَهَلْ يُؤَدُّونَ عِبَادَاتِهِمْ أَمْ لَا، وَأَنْ تُتَابَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ. فَإِنَّ الْوَقْتَ الَّذِي تُخَصِّصُهُ لِأُسْرَتِنَا، وَالتَّضَحِّيَّاتِ الَّتِي تُبْذُلُهَا مِنْ أَجْلِ بَعْضِنَا الْبَعْضِ، تُعَدُّ بِمَثَابَةِ الْعِبَادَةِ. فَمَنْ تَرَكَ تَعَبَ يَوْمِهِ خَارِجَ بَابِ بَيْتِهِ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَخَصَّصَ وَقْتًُا لِأُسْرَتِهِ، وَقَابَلَهُمْ بِوَجْهِ بَشُوشٍ، فَقَدْ أَحْيَا سُنَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَمَنْ أَهْمَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ وَأُسْرَتَهُ مِنَ الْإِفْتِدَاءِ بِسُنَّتِهِ ﷺ.

أَيُّهَا الشَّبَابُ الْأَعْرَاءُ!

إِنَّ الرِّوَاجَ دِرْعٌ يَقِيكُمْ مِنَ الْمَعَاصِي، وَنِعْمَةٌ تَمْنَحُ نُفُوسَكُمْ السَّكِينَةَ. وَبِنَاءُ الْأُسْرَةِ هُوَ إِضَافَةُ حَلْفَةٍ جَدِيدَةٍ إِلَى سِلْسِلَةِ الْإِرْثِ النَّبَوِيِّ لِنَبِيِّنَا ﷺ الَّذِي قَالَ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ..."⁴ وَلَنَتَذَكَّرُ أَنَّ تَنْشِئَةَ أَجْيَالٍ تَنَالُ ثَنَاءَ نَبِيِّنَا ﷺ سَبَبٌ فِي بَقَاءِ صَحِيفَةِ الْأَعْمَالِ مُفْتُوحَةً فِي الْآخِرَةِ.

وَلَنُخَتِّمَ خُطْبَتَنَا بِهَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَنَا إِيَّاهُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: "رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا".⁵

¹ سُورَةُ النَّحْلِ، 80/16.

² سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، كِتَابُ الْبِرِّ، 33.

³ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، 11؛ كِتَابُ الْإِسْتِغْفَارِ، 20.

⁴ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، 63.

⁵ سُورَةُ الْفُرْقَانِ، 74/25.

